حوار العرب (بيروت)، 19 (2006)، ص 15- 18.

الحركة العربية وألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى
شكيب أرسلان نموذجاً[1]

عبد الرؤوف سنّو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

برزت في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تيارات فكرية عديدة اندرجت في طروحاتها ما بين الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية والوطنية الإقليمية والعلمانية والقومية العربية. وبُعيد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وجد الإسلاميون وأنصار الجامعة الإسلامية وعدد من الوطنيين أنفسهم في معسكر ألمانيا حليفة الدولة العثمانية. وهذا يعود في الأساس إلى سياسة ألمانيا الإسلامية وتوددها إلى الدولة العثمانية وعدم توسل سياسة استعمارية مباشرة تجاه ممتلكات الدولة العثمانية، وفوق كل ذلك أن ألمانيا يمكنها أن تنقذ الدولة العثمانية من مخططات دول "الوفاق الودي"، بريطانيا وفرنسا وروسيا. وقد أملت الحركة العربية في أن تلعب هذه الدولة دوراً بعد الحرب من أجل إبراز شخصيتهم الوطنية أو القومية، مع الإبقاء في الوقت نفسه على الدولة العثمانية مظلة استراتيجية تحمي البلاد العربية. وقد جمع كل هؤلاء عداؤهم لبريطانيا وفرنسا وروسيا وسياساتها ضد المسلمين. وفي المقابل، انحاز قوميون عرب وقوميون لبنانيون إلى الشريف حسين وحليفته بريطانيا، على أمل أن تحقق هذه الدولة للعرب أمانيهم في دولة عربية مستقلة.

ومن أبرز الشخصيات العربية التي تعاونت مع ألمانيا خلال الحرب، شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما سعى الخديوي عباس حلمي بدوره إلى الحصول على دعم ألمانيا والدولة العثمانية لاستعادة منصبة في مصر. وفي العراق، برز عزيز علي المصري، مؤسّس "جمعية العهد". فمال إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين. وقد أثبت في دراسة سابقة لي "الإسلام في الداعية الألمانية في المشرق العربي أثناء الحرب العالمية الأولى" أن تعامل هذه الزعامات مع ألمانيا، وإن اختلفت أساليبه وطرقه، كان بدافع الاستفادة من الصراع الكوني من أجل القضية العربية، وعملاً بالشعار "عدو عدوي صديقي".

أين وقف شكيب أرسلان من هذه الطروحات؟ وما هو موقفه الدولة العثمانية ومن دول "الوفاق الودي"، ولماذا مقت دول الاستعمار مفضلاً عليها ألمانيا؟

أرسلان والدولة العثمانية

يعتبر شكيب أرسلان من أبرز الشخصيات العربية التي لعبت دوراً مميزاً خلال الحرب العالمية الأولى، سواء عبر تأييده بقاء البلاد العربية تحت الحكم العثماني أو العمل مجاهرة مع ألمانيا كداعمة للإسلام. تأثر بمحمد عبده وبالأفغاني، وانصب اهتمامه على رؤية الإسلام قادراً على التصدي لأوروبا. فشارك في الفرقة العثمانية التي حاربت الإيطاليين في طرابلس الغرب عام 1912، ورفض المشاركة في مؤتمر باريس عام 1913. وعلى الرغم من دفاعه عن العروبة، إلا أنه اعتبر وجود العثمانيين في المشرق العربي، رغم ضعفهم، يشكل حماية استراتيجية للأماكن المقدسة للإسلام، مكّة والمدينة، ولاستقلال بلاد الشام وسيادتها التي تتربص بها قوى الاستعمار. فطالب بأن يلتف العرب حولها، مشترطاً في المقابل على العثمانيين إحياء اللغة العربية والعروبة.

خلال الحرب العالمية، حافظ أرسلان على مواقفه تجاه الدولة العثمانية وتعاون معها ومع ألمانيا، معتبراً نفسه ليس زعيماً درزياً، وإنما ممثلاً لمشاعر معظم العرب في سورية، وكل القيادات العربية الموجودة في أوروبا تقريباً. وما لبث أن وقف ضد التحالف الذي قام بين الشريف حسين وبريطانيا، معتبراً إياه موجهاً ضد الدولة العثمانية والإسلام، وضد مصلحة العرب. لكنه رفض اتهامات العثمانيين للعرب بالخيانة بعد اندلاع الثورة العربية، معتبراً أن الشريف حسين لا يمثل كل العرب، وأن العرب قاتلوا إلى جانب العثمانيين. وعزا سبب التباعد بين العرب والعثمانيين وظهور ما يسمى بـ "المسألة العربية" وانقسام السوريين بين مستعين بفرنسا وآخر ببريطانيا، إلى سياسة التتريك ونظرة بعض دوائر الاتحاديين إلى العرب على أنهم ليسوا أكثر من سكان مستعمرة تركية. وتوقع أن يكون أكبر تهديد للعثمانيين في إنشاء العرب دولة مستقلة لهم. فطالبهم بإعطاء العرب الحرية لتطوير أنفسهم اقتصادياً وثقافياً، لكي تبقى السلطنة قوة عالمية تحتضنهم مع غيرهم من الشعوب الإسلامية، وأن يعوا أن أهم عوامل قوتهم هي في معاملتهم الجيدة والصالحة للعرب.

وخلال زيارته الأولى إلى ألمانيا عام 1917، تحدث أرسلان مع المسؤولين هناك حول ضرورة تغيير نظام السلطنة بعد الحرب بحيث تتحول الدولة العثمانية إلى فيدراليات تضم إمارات عربية مستقلة مرتبطة بالدولة العثمانية. لكن خروج الدولة العثمانية مهزومة من الحرب، جعل أرسلان يضيف خيارين آخرين أمام العرب، إما بقاءهم تحت السيادة العثمانية، أو تطبيق مبادئ ويلسون عليهم في حق تقرير مصيرهم. وبرر ذلك، بأن العرب يرفضون الشريف حسين زعيماً أو خليفة عليهم، أو غيره من الزعامات العربية. ورأى أن العرب لا خيار لهم سوى أن تطبق عليهم مبادئ ويلسون أي الاستفتاء، لكن بريطانيا لا تريد الاستفتاء، بتنفيذ اتفاق سايكس – بيكو على المنطقة.

وعلى الرغم من تأييده للدولة العثمانية كحليف إستراتيجي إسلامي تجاه الغرب، فقد انتقد أرسلان سياستها في سورية، وبخاصة تلك التي اعتمدها جمال باشا. فوقف ضد هذا القائد العثماني وسياسة البطش والإعدامات التي اعتمدها ضد السوريين. وعلى عكس ما هو متداول، تدل اتصالاته بالقنصلية الألمانية في بيروت وكذلك بالسفارة الألمانية في استانبول وبأنور باشا، على أنه حاول جاهداً الوقوف ضد الإجراءات التعسفية للقائد العثماني واستخدام الدبلوماسية الألمانية تارة والدبلوماسية العثمانية تارة أخرى في سبيل ذلك. وبالرغم من محاولاته اليائسة لوقفها، فإن الألمان لم يعيروها أهمية خشية إغضاب حلفائهم العثمانيين. واضطره موقفه هذا إلى مغادرة سورية قبل نهاية عام 1917، بعدما وجه انتقادات لاذعة إلى جمال باشا.

موقف أرسلان من دول "الوفاق الودي"

عبّر أرسلان في أكثر من مناسبة عن أن ميله إلى العثمانيين وتمسكه بهم لا يعود إلى الرابطة العثمانية بقدر كرهه لدول "الوفاق الودي"، بريطانيا وفرنسا وروسيا، التي تعمل على تقسيم البلاد الإسلامية والعربية. وقال، إن ما فعلته دول الاستعمار بالعالم الإسلامي، يجعل الإسلام يخشى من مخططاتها وإمكانية سقوطه مع الدولة العثمانية. ورأى أن هناك حالة عداء مزمنة من جانب دول الاستعمار تجاه الدولة العثمانية كممثلة للإسلام. **"فكما أن روسيا هي عدو للإسلام كله، وبشكل خاص عدو للأتراك، كذلك هي انكلترا عدو للإسلام وبخاصة العرب من خلال مركزها في الشرق"**. فروسيا تعمل منذ قرون عديدة ضد للإسبالدولة العثمانية بهدف السيطرة على الممرات العثمانية، في حين تحكم فرنسا عشرات الملايين من المسلمين العرب في شمال إفريقيا، وتعمل على فرنستهم، مما يتفي عنها صفة صديقة الإسلام والدولة العثمانية. وفي إشارة إلى استغلال دول "الوفاق الودي" المسلمين في جيوشها لمحاربة "دول الوسط" قال أرسلان: **"يموت المغربي حتى تنتصر فرنسا على ألمانيا، ويموت الهندي حتى تتغلب انجلترا على عدو لها، ويموت التتري في سبيل ظفر الروسيا".**

لقد انصبت كراهية أرسلان للاستعمار في الدرجة الأولى على بريطانيا، التي اعتبر أنها أسوأ أنواع الاستعمار، في حين وصف الاستعمار الفرنسي بأنه أشد بربرية ويأتي بعده الاستعمار الإيطالي. لكن ما يجمعها هو الرغبة في القضاء على الإسلام الممثل بالدولة العثمانية واستعباد العرب والتنكر لعهودها ومواثيقها معهم. فيتساءل: **"اين هي المعاهدات التي لم تنتهك من قبل بريطانيا وفرنسا؟ وأين الوعود التي حافظت عليها الدولتان؟**

رأى أرسلان أن بريطانيا تعمل منذ احتلالها لمصر على تدمير الدولة العثمانية وضرب قيادتها للعالم الإسلامي (الخلافة)، وتحويل السلطان العثماني إلى ما يشبه خديوي مصر يحكم في القسطنطينية فقط، فضلاً عن أضعاف روابط السلطنة بالمسلمين عبر تحريض شعوبها عليها، وفي مقدمهم العرب. وبسبب المخططات البريطانية، لم تتمكن السلطنة برأي أرسلان من القيام بأي شيء من دون تدخل بريطانيا في شؤونها. وإضافة إلى عدم تنفيذ تعهدها بإخلاء مصر، رأى أرسلان أن بريطانيا احتلت بلاداً عربية وإسلامية في آسيا وإفريقيا، فضلاً عن الهند، وتعمل على نهبها تحت ستار صداقتها للمسلمين وللعرب. يقول أرسلان، صحيح إن بريطانيا تتودد إلى العرب وتدعم الشريف حسين في ثورته وتمده بالأموال والأسلحة، وإنما من أجل استخدامه ضد السلطنة فقط طالما أن الحرب قائمة، لكنها في الواقع ضد مشروعه لضم سورية إلى الحجاز في مملكة موحدة، وهي لا تخشى قيام دولة عربية موحدة فحسب، وإنما دولة عربية مستقلة في الحجاز تشرف على البحر الأحمر، أي طريق السويس - الهند.

ورداً على تصريحات رئيس الوزراء البريطاني حول حق العرب في تقرير مصيرهم، تساءل أرسلان عما إذا كانت بريطانيا تريد بالفعل أن يقرر العرب مصيرهم بأنفسهم أم فصلهم عن الدولة العثمانية للسيطرة عليهم وعلى مواردهم. ورأى أن بريطانيا تعامل العرب كالزنوج والرقيق، وتتنكر لحقوقهم في تقرير مصيرهم، من جهة كي لا تضطر إلى إخلاء البلاد العربية التي تحتلها، ومن جهة أخرى كي لا يصبح العرب قوة كبيرة تقف عائقاً في وجه مخططاتها الاستعمارية، وفي مقدمها مشروع تهويد فلسطين.

وانطلاقاً من مقولته بأن "بريطانيا تعيش في الشرق وتموت فيه"، وإنه من دون الشرق (الهند)، لا تكون بريطانيا أقوى دولة في العالم، قام أرسلان عام 1915 بتشكيل وحدات من الدروز قوامها عشرة آلاف شخص للمشاركة في الحملة العثمانية على مصر. فطالب "دول الوسط" بحسم المعركة ضد بريطانيا ليس في الغرب، وإنما في الشرق حيث مواصلاتها ومستعمراتها ومصالحها الحيوية. وقال: **"يجب أن يكون هدفنا هو ضرب بريطانيا في الشرق من دون انتظار حسم الحرب في الجبهة الغربية"**. فلا يمكن إلحاق الهزيمة ببريطانيا، برأي أرسلان، من دون القضاء على قوتها البحرية ونزع الهند عنها.

شكيب أرسلان وألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى

بسبب تنامي مصالحها في الدولة العثمانية، وضعت ألمانيا منذ التسعينيات من القرن التاسع عشر سياسة تقوم على الحفاظ على السلطنة في وجه القوى الأوروبية الأخرى الساعية إلى تقسيم ممتلكاتها. وفي الوقت نفسه، ابتعدت عن الاستعمار المباشر تجاه ممتلكات السلطنة متوسلة في ذلك التغلغل السلمي، ما جعلها قوة صديقة في نظر المسلمين.

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، عملت ألمانيا على استخدام الجهاد الإسلامي وصفة السلطان العثمانية كخليفة من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة لدول "الوفاق الودي"، وحثها على القيام بانتفاضات تنهك هذه الدول وتشغل قواتها. ولهذا السبب، أقنعت القيادة العثمانية بدخول الحرب إلى جانبها وإعلان الجهاد المقدس ضد دول "الوفاق الودي". وكانت مصر إحدى الأهداف لإستراتيجية الرئيسية للحرب في المشرق العربي. من هنا، كثفت ألمانيا من دعايتها في تلك المناطق بأنها حليفة المسلمين وسلطانهم الخليفة العثماني، وأنّها تعمل على تغيير أوضاعهم بعد الحرب. فأنشأت المؤسسات للاضطلاع بهذه المهمة، واستخدمت في الوقت نفسه مفكرين وسياسيين وصحافيين عرب، من ضمنهم الأمير شكيب أرسلان للترويج لصداقتها للإسلام.

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى هي التي بلورت مواقف أرسلان من ألمانيا، إلا أنه من الثابت أن أرسلان أقام علاقات مبكرة مع الدبلوماسيين الألمان سبقت اندلاع تلك الحرب بعشرين عاماً. وقد رافق أرسلان الإمبراطور وليم الثاني في زيارته إلى بلاد الشام عام 1898 بناء على أمر من السلطان عبد الحميد الثاني.

وأسوة بغيره من الوطنيين العرب، مال أرسلان إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين والفرنسيين. ورأى أنها لم تمارس سياسة استعمارية تجاه البلاد العربية، وتتعاطى مع السلطنة كحليف رفضت تقاسم ممتلكاتها مع الدول الغربية، ولا تستغل مشاعر المسلمين والعرب في سبيل الاستقلال. ويعترف أرسلان بعدم وجود صداقة بين شعبين من دون مصالح مشتركة، وهو ما ينطبق على العلاقات المتينة بين ألمانيا والإسلام، حيث يتبادل الفريقان الدعم والمساندة بكل إخلاص. وتوقع أرسلان أن تصبح ألمانيا دولة استعمارية كبيرة، بعدما تؤول إليها مستعمرات دول "الوفاق الودي" بعد انتهاء الحرب. لكنه، يسارع إلى الافتراض بأن ألمانيا كدولة تتوفر لها كل مقومات الدولة الاستعمارية، تختلف عن غيرها من دول الاستعمار التقليدية، فهي لا تنتهك حرية الشعوب. من هنا، طالب ألمانيا بالعمل على تحديث سورية والدخول بقوة للنهوض بها اقتصادياً وترويج تجارتها والحصول على الاستثمارات وجني الكثير من جراء صداقتها للمسلمين كقوة

للمستقبل بعيداً عن أية مطامع استعمارية. عكس ذلك، استعمار ألماني مباشر، سيجعل السوريين كلهم ينهضون ضدها كرجل واحد، ذلك لأنهم يريدون أن يبقوا أحراراً.

وبدافع الخوف على الإسلام من مخططات دول الوفاق الودي وإمكانية سقوطه مع الدولة العثمانية، دعا أرسلان الإسلام لأن يكون صديقاً لألمانيا التي تتصدى للساعين إلى الإضرار به وبدولة الخلافة. فقال:" **"إنه من الواضح أن صديق الإسلام هو الذي يكون عدواً للذي يضمر شراً بالإسلام. وأي عدو أقوى من بريطانيا وفرنسا في الوقت الراهن في البر والبحر غير الدولة الألمانية"**. فدعا المسلمين أن يبقوا على تحالفهم مع ألمانيا، وأن يقدموا المساعدة لها كما يحصلون هم بدورهم على دعمها. وختم بالقول: **"طالما أن البريطانيين والفرنسيين يمارسون سياسة الاضطهاد ضد البلدان الإسلامية ... طالما أن الأتراك والألمان كتفاً على كتف ضد كل عدو يسعى إلى محاربتهما ... لن ينجح هؤلاء في إطفاء نار الحب المتوقدة في صدور المسلمين والألمان"**.

لقد اتخذ تعاون أرسلان مع ألمانيا أشكالاً مختلفة. فهو الذي حثّ القيادة العثمانية على دخول الحرب إلى جانب ألمانيا. وهو الذي اقترح على ألمانيا تجميع الأسرى المسلمين لديها في معسكرات وتأهيلهم وإعادة إرسالهم إلى الجبهات للمحاربة ضد الحلفاء. وطالب ألمانيا بأن تقوم بتسليح الانتفاضات الإسلامية. كما تولى أرسلان، بناءً على رغبة ألمانية تحرير جريدة "الشرق" الدمشقية لعدة شهور وكتب الافتتاحيات فيها، قبل أن يتولى إدارتها محمد كرد علي والشيخ عبد القادر المغربي. وعبر التقارير التي كان يرفعها إلى الألمان، كان أرسلان يصف الأوضاع في سوريا، المواقف الشعبية على أنها مؤيدة لدول الوسط، وخصوصاً تحول الدروز عن تأييد بريطانيا إلى جانب ألمانيا، وارتعاد المسيحيين السوريين من الانتصارات التي حققتها ألمانيا والدولة العثمانية. ورأى أرسلان أن إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات (8 أيلول 1914) ووضع جبل لبنان الخاص في السلطنة، كان ضربة موجهة لرجال الدين الكاثوليك ولدول "الوفاق الودي". لكن، أرسلان طالب المسلمين في المقابل بمعاملة حسنة للمسيحيين.

وفي عام 1917، زار أرسلان برلين موفداً من قبل وزير الحربية أنور باشا. فأحاطته حكومتها برعاية خاصة كزعيم درزي رفيع، واستغلت وجوده عندها، بعدما رأت فيه عنصراً عربياً هاماً لمساندة السياسة العثمانية. ومنذ تلك الزيارة، أخذ أرسلان يعمل على نشر المقالات في الصحف الألمانية، وأصدر كتيبات مناهضة لدولة الوفاق والمؤيدة لدول الوسط. كما ألقى الخطب أمام الألمان، وأمام الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية دعا فيها إلى تأييد ألمانيا. وأثناء إقامته في ألمانيا عام 1917، ألقى محاضرة على الألمان حول المجاعة في سوريا. فدافع عن الألمان والعثمانيين كمسببين لها، وعللها بالحصار البحري الذي ضربته أساطيل دول الوفاق الودي على الساحل السوري. وفي عام 1918، زار أرسلان برلين مرة أخرى مبعوثاً لأنور باشا.

استنتاج

كان شكيب أرسلان من القيادات العربية التي أدركت أن مجابهة البلاد العربية قوى الاستعمار المتربصة بها تتطلب مسألتين: أولاً: الإبقاء على الرابطة بين العرب والعثمانيين والتضامن الإسلامي معهم، وثانياً: ضرورة الحصول على دعم دولة قوية للتصدي لما تحيكه دول "الوفاق الودي" من مخططات لتقاسم ممتلكات الدولة العثمانية وبالتالي منع سقوط المنطقة العربية تحت حكمها. وكانت ألمانيا في نظر من المسلمين والعرب، هي الدولة المؤهلة للدفاع عن الإسلام نتيجة اعتمادها سياسة دؤوبة للتقرب من الإسلام انتهجها عاهلها وليم الثاني.

ومع كل جهوده لدعم ألمانيا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، تعاملت ألمانيا مع أرسلان وغيره من رجالات الحركة العربية على أن أنهم مجرد مصادر للمعلومات أو أدوات للدعاية وليس حلفاء. في عام 1941، كتب رئيس بوليس الأمن إلى الخارجية يقول إن أرسلان رجل غير موثوق فيه، وأن العرب من مصر إلى شمال سوريا يصفونه بـ: **"الشرلطان"**.[2] وسبق ذلك في عام 1938 أن رفضت رئاسة الوزارة الألمانية والبوليس السري الألماني زيارة أرسلان إلى ألمانيا، في حين اعتبرته وزارة الخارجية رجلاً طاعناً في السن يجب ألا يقدر أكثر من حجمه.[3] هكذا، انتهى شكيب أرسلان، في نظر السياسة الألمانية، رجلاً طاعناً في السن لا يفيد المصالح الألمانية، بعدما كان خلال الحرب العالمية الأولى من أكثر المروجين للصداقة بين ألمانيا والشعوب الإسلامية، وقدم من أجل ذلك خدمات جليلة لها.

---

[1] تعتمد هذه الدراسة في الأساس على 25 مقالاً غير معروفة كتبها شكيب أرسلان في صحف ومجلات ألمانية خلال عامي 1917 و1918. وهي باللغة الألمانية ترجمت على ما يبدو من اللغة العربية. من هنا، تلقي هذه الدراسة الضوء على مواقف جديدة لأرسلان تجاه الدولة العثمانية وألمانيا ودول الاستعمار التقليدية.

[2] وثيقة ألمانيا يحتفظ المؤلف بنسخة منها..

[3] وثيقة ألمانية يحتفظ المؤلف بنسخة منها.